الشخصية الرومنتيكية

والحب الرومنتيكى

حول « رفائيل » للامرتين

الأستاذ محمد عبد الحليم محمود

كان القرن الثامن عشر فى أوربا عامة ، وفى فرنسا خاصة ، عصر « العقل » ... عصر التفكير المنظم المنطق سواء فى العلوم وفى الآداب

فلا عمل فى كتابات الأدباء ورسائل الفلاسفة للعواطف الجامحة والإحساسات الغامضة والمشاعر المختلجة والصبوات المضطربة التى تزخر بها النفس الإنسانية ، والتى لا تخضع لمنطق ما . .

كل شئ فى هذا العصر حاول المفكرون تقنينه وفلسفته

لذلك ازدهرت فنون الأدب التى تحتاج قبل كل شئ إلى « العقل » . . فنرى « القصة الفلسفية » ، مثلا ، قد بلغت من الكمال حدا بعيدا على يد فولتير ومونتيسكيو وليساج وغيرهم

وهذا الفن من القصص لا يحتاج إلى الانفعالات النفسية يصفها ويحللها ، بل هو يعتمد قبل كل شئ على « النقد » : نقد المجتمع المعاصر بعيوبه ومهازله ، ونقد الحالة الأدبية والدينية والسياسية للبلاد ، فى أسلوب من السخرية اللاذعة والتهكم الفلسفى الشيق

وبسبب هذا الميل إلى التفلسف فى القصة وقع المؤلفون ، وإن كانوا من أئمة الكتاب ، فى شئ من الجفاء والإملال ، وأبعدوا عن حقيقة الإنسان الحى ونفسه المضطربة العامرة بالمشاعر . .

فقصة « كانديد » للأديب الفيلسوف فولتير ، وهى تعتبر خير قصة ألفت فى القرن الثامن عشر على الإطلاق ، لا يجد فيها القارئ سوى شخصيات فلسفية خيالية تمثل أفكارا وتعبر عن مذاهب ، وليس فيها من « الإنسانية » إلا الشئ القليل ؛ فهى دمى وعرائس يحركها المؤلف لغرض فى نفسه ، غير حاسب حساب النفس البشرية بما تنطوى عليه من أسرار ومتناقضات

وكان لا بد من رد فعل قوى لهذا النوع من « عبادة العقل » التى سيطرت على أغلب إنتاج القرن الثامن عشر . . . فالإنسان ، لأنه إنسان ، ليس عقلا كله ، ولا يستطيع أن يخضع القيم النفسية الذاتية لميزان المنطق وحساب الفكر الفلسفى المجرد

وجاء رد الفعل فى صورة المذهب الرومانتيكى

وكما غلا فلاسفة القرن الثامن عشر فى تقدير العقل والمنطق والتفكير الفلسفى . . غلا الرومانتيكيون ، أو إذا شئت فسمهم « الابتداعيين » فى تقدير « الذاتية » والعاطفية ، وفى تمجيد انفعالات النفس البشرية وأسرارها

وسيطر هذا المذهب على سائر فنون الأدب زمنا طويلا

ويهمنا هنا أن نتبين أثر الرومانتيكية فى القصة

فقد نشأت فنون جديدة من القصص أبعدت كل البعد عن التحليل الفلسفى الجاف ، وراحت تبحث فى أعماق الإنسان عن العواطف والإحساسات والمشاعر فى شتى صورها

واحتل « الحب » مكان الصدارة من هذه القصص لأنه أقوى وأجل عاطفة فى الإنسان

واحتلت شخصية « العاشق العذرى » المكان الأول من شخصيات القصة

وإذا أردنا أن نشهد صورة لهذا الحب الرومانتيكى ، وأن نجتلى طلعة العاشق الرومانتيكى ، نخير قصة ننظر فيها هى ، فى رأيى ، قصة « رفائيل » ، للشاعر لامارتين ، التى ترجمها أستاذنا الكبير الزيات بك إلى العربية

فهذه القصة تمثل أصدق تمثيل المذهب الرومانتيكى فى الأدب . بطلها صورة دقيقة لما كان يرتسم فى أذهان القراء والكتاب على السواء ، إبان ذلك العصر ، من ملامح العاشق الكامل . . والحب فيها هو مثال الحب العذرى الصوفى الكامل

الذى رأى فيه الرومانتيكيون مثلهم الأعلى . .

لذلك رأيتنى ، عندما أردت رسم الشخصية الرومانتيكية والحب الرومانتيكى مدفوعا إلى اختيار شخصية رفائيل وحبه لجوليا فى رواية لامارتين الخالدة

وقد اعتمدت كثيرا ، إلى جانب الأصل الفرنسى ، على الترجمة العربية

رفائيل فتى من أسرة ريفية كريمة الأصل ، وإن كانت فقيرة ، خبت فيه وقدة القلب وهو فى شرخ الشباب ، وفقد ثقته بالناس ، ومات نفسه عشرتهم وضاع أمله فى السعادة ؛ فراح يبحث عن العزلة فى قرية آمنة ، على شاطئ بحيرة جميلة ، بين أحضان جبل شامخ . . وإذا به يلاقى هناك فتاة تحيى فى نفسه موات الأمل ، وتعيد إلى قلبه حرارة العاطفة ، وتجعله يشعر من جديد بجمال الحياة

العزلة النفسية :

إن مثل هذه الشخصية تميل إلى التأمل فى نفسها ، وفى الطبيعة ، وفى الوجود كله ، فهى تحتاج من أجل ذلك إلى الهدوء والسكينة . ثم إن رفائيل ليست له أطماع أو أطماح فى هذه الدنيا ، بل هو يزدرى المجتمع ويحتقر الجاه ، ويشعر بقيمة نفسه وبسمو ذاته التى لا ترضى إلا بالعزلة المطبقة . . العزلة النفسية التى تقضى على كل صلة بينه وبين المجتمع ، لم تأت عليها عزلته المادية فى قريته النائية بمقاطعة سفوا . .

دور الطبيعة فى الشخصية :

رفائيل يؤمن بأن الطبيعة تتصل بسلكها بحبات القلب ومشاعره ، فهى جزء من النفس والنفس جزء منها ، وإن ما يجرى فى عناصر الطبيعة من الحياة هو نفسه ما يجرى فى عروق الإنسان منها . وهو لذلك يكتئب حينما تتلبد السماء بالغيوم ؛ وينشرح قلبه عندما تشرق الشمس ، وتهدأ العواصف : وتعود السكينة إلى الطبيعة فتعود أيضا إلى نفسه . . . وأحب رياضة إليه التجول وسط الحقول ، أو التنقل على صفحة البحيرة ، أو صعود المرتفعات ، أو اجتياز الأحراج ؛ والطبيعة عنده ، فوق كونها صديقة الإنسان الوفية يبثها آلامه وأفراحه ، هى أجل مظهر من مظاهر قدرة الإله

رجل خير :

إنه يحب الخير لغيره ، ويعمل جهده على مساعدة المحتاجين : فهو فى وطنه يطعم الفقراء ، ويعلم الصبيان ، ويعين الفلاحين فى أعمالهم . وهو عطوف حنون ، يميل إلى الضعفاء ويحب كل كائن معذب شقى : وهو لذلك قد عطف على جارته فى الفندق عندما علم أنها مريضة متألمة ؛ وفى أيامه الأخيرة كان جل همه توفير الطعام لأسراب من طيور السنط قد اتخذت منزله ملجأ وحمى

حساسية مرهفة :

هو رجل رقيق الطبع ، شاعرى المزاج ، مثالى النزعة ، قد تجرد من الأطماع والأغراض . فهو لذلك يمتاز بحساسية مرهفة ، أو قل : إن هذه الحساسية المرهفة هى السبب فى رقته وشاعريته ومثاليته وتجرده من الأطماع والأغراض . وهذا الشعور المرهف يجعله يتفعل لكل ظواهر الجمال فى الدنيا : جمال الطبيعة وجمال الحب وجمال الآداب والفنون . . . ثم بجمال القدرة الإلهية فوق كل جمال . .

أجل ! فهو يؤمن بوجود إله خالق خير يهيمن على هذا الكون ويدبر أموره . وهو دائما يذكر الله ويذكر السماء عند ذكر الحب والحبيبة ، فهو يمزج بين الحب والدين ، أو هو يجعل عبادة الجمال نوع من عبادة الله ، لأن الله هو الجمال المطلق

دور الحب فى الشخصية :

كان قبل أن يحب يؤمن بأن الحياة بما فيها من شقاء وملل لا تستحق أن يحياها إنسان . فلما أحب ، وأيقظ الحب شعوره الراكد ، وحرك حسه الجامد ، ورفعه إلى أعلى مدارج السعادة الروحية ، أصبح يرى أن الحياة ، لفرط ما فيها من قيمة سامية ، يخشى عليها أن يعكر صفوها حدث من الحدثان فى عالم الغيب ، لذلك يريد أن يموت فى أوج سعادته ، قبل أن يفجأه القدر المشئوم ، ويفجعه فى حبه ...

رفائيل ولا مارتين :

الرومانتيكية تبحث قبل كل شئ عن « الذاتية » . فإذا كتب كاتب فإنما يعبر عن دفين أسراره ، وإذا رسم فنان فهو يعبر عن خلجات نفسه واضطرابات حسه ... ولا مارتين ، عندما صور بطل قصته ، فقد صور فيه نفسه : نفسه التي تنزع إلى المثالية في العاطفة والزهد في الحياة والتصوف في العبادة . . . وعشق كل ما هو جميل في الكون

السأم ، والتألم الهادئ :

الصفة الثالثة على كل شخصية رومانتيكية هي : السأم الفطرى الذى لا سبب مباشر له ، والتألم الهادئ الرقيق . . . ورفائيل مثلا في مقتبل العمر وشرخ الصبا لم يصبه من الصدمات ما يبرر عزوفه عن العمل ، ويأسه من كل شئ وابتعاده عن الناس في شئ من القسوة على نفسه وعلى أقرانه ... ولكن هي الطبيعة الرومانتيكية تأبى إلا أن يكون صاحبها إنسانا يمتاز بالحزن الدائم والتشاؤم وفقدان كل أمل . . .

وليس الحزن الرومانتيكي بالحزن الصارخ القبيح ، بل هو ضرب من الألم الوجداني الهادئ ... ألم شاعرى رقيق ، يجلب العطف ويضفي على الشخصية صبغة مميزة جميلة ...

وأما الحب الذى ربط بين قلب رفائيل وقلب صاحبته « جوليا » ، التي هي صورة أخرى من الشخصية الرومانتيكية الممثلة في رفائيل ، فقد كان حبا مثاليا أقرب إلى ما يسميه الإفريق بالحب الأفلاطوني ، والعرب بالحب العذرى

أهم صفات هذا الحب الرومانتيكي :

التفاني :

هو مريض النفس ، سئم الحياة ومل المجتمع وعاش وحيدا في دنياه ... وهي مريضة الجسد تحب العزلة وتنطوي على نفسها في يأس ومرارة ... « كلاهما طريد هم و وحيد غربة ونضو سقام وأليف وحشة » ... فأحبها لأنها تشبهه إلى حد بعيد ... بل هو كان يحب فيها نفسه ... وقد أصبحا فيما بعد ، لفرط حبهما كأنهما شخص واحد : « وإنما أنا ظل بشخصك » ... لقد رآها فاحتواها في نفسه ، ولم يعد في مقدوره أن ينتزعها من أعماقه ، وهما إذ يلتقيان ليسا في حاجة إلى الكلام ، لأن كليهما يفهم ما يدور بنفس الآخر ، بل لأن روح كل منهما قد حل في روح الآخر : « فأتحول إليها ، وتتحول إلى ، حتى لا يستطيع الله نفسه ... أن يفصل ما مزج الحب وأحالته معجزة الهوى »

العطف والاعتراف بالجميل :

لقد بدأ حب الفتى لصاحبته بنوع من الرثاء لحالها والتألم لمرضها . وقد لفته أول ما لفته إليها هزالها البادى وشحوبها ، فأدركته لها رقة ورحمة وهي بدأت تحبه عندما شعرت بعطفه عليها ، إذ كانت « محرومة نسب القلب وصلة الروح في ربيع شبابها » ثم أفاقت فجأة لتجد إلى جانبها عناية وإخلاصاً وحناناً ، فلم تمالك أن حركت لسانها بهذه الجملة المؤثرة : « لك الحمد يارب لقد رزقتني أخا » . وقد زاد من حبه لها أنها أيقظت فيه الشعور بالحياة ، وجلت لعينيه مسارح الخلود ... نظرة واحدة منها كفلت له تجديد كيانه ، وتنوير وجدانه ، وبعثه من رقود ، وإمتاعه بأيام سعادة لا مدى لها

العبادة واللانهائية :

المرأة التي يحبها في نظره إله ، أو على الأصح فالإله يتمثل فيها . لذلك فهو يقرن ذكرها بذكر الله ، ويهم بالركوع أمامها إذا لقيها ، ويصلي لها في حرارة وإيمان : « اتحد الله وهي في نفسي اتحادا تاما » .. « فكأن الهوى والعبادة يتزجان فيها بمقدار واحد » ... لذلك فهو يقدس حبها ويؤمن بألوهيته ، ويتعبد لتلك المرأة التي « جلت بحنانها عن أن تكون إلها ، وسمت بقداستها عن أن تكون امرأة »

وما دامت الحبيبة شبه إله فالحب لا حد له : إنه حب أشبه « بسر بعيد الغور شاع في جوانب النفس بالإحساس لا بالكلام فهو نور من غير نار ، وسكر من غير خمار ، وهو كال لا يعدو ولا ينفصل ، ووحدة لا تجزأ ولا تحلل ، يفيض على النفس نشوة لا تحد ، ويجلو القلب من أسمى المعاني ، ويكشف البصيرة عن وجود الله ذاته . . . والعاشقان يفهمان من الحب : « الخلود تستوعبه دقيقة ، واللانهاية تستقصيها إحساسة رقيقة » ، ثم هما

يؤمنان بخلود النفس البشرية ولا نهائيتها لأنهما يشعران عند اللقاء بذلك الخلود وبتلك اللانهائية ...

الطهارة :

مثل هذا الحب القدسي لا يمكن أن يكون حبا شهوانيا، إنما هو عشق روحين واتصال قلبين، ورباط بين شخصين مثاليين. إن الفتى لا يحب في صاحبته الجسد الزائل والجمال الفاني، لكنه يحب مثالا في نفسه يتعشقه، وصورة عليا يصبو إليها وجدانه ... إنه يحب فيها « طيفا من طيوف الغيب »، ويبحث لديها عن ذلك الشعور بالراحة « الذي يجده من ظفر بحاجة طالما نشدها فما وجدها، ويدركه القلب العابد القانت ... حتى إذا أدركه علق به علوق الحديد بالمغناطيس، وفني فيه فناء النفس في الهواء ». وهو سواء على القرب منها والمشهد، أو على البعد والغيب، يراها في نفسه، وما عداها لا يشغله ولا يعنيه ..

والحب في نفسه تطهير وتصفية : إنه شعلة اللهب تحرق وتلذع الحس، ولكنها تضيء كوامن الوجدان وتنير للقلب عالم السماء ... وقد هفا حس الفتى الحيواني في ساعة من ساعات النشوة فوق مياه البحيرة إلى جمال صاحبته الجسدي، ولكنها سرعان ماردته، بإخلاصها وطهارة نياتها وتفانيها في حبه، إلى صوابه الضائع؛ قالت : « ألا تعتقد أن حبنا يكون أمتع وأرفع وأبقى وأنقى ما دام مصونا في خدر العفاف، نازلا في مناحي الخلود، حيث لا يتقلب الحدثان ولا يعدو الموت ؟! »

الحب والحياة :

كان الحب عند بطلي الرواية مثيرا لظاهرتين متناقضتين في نفسيهما : الأولى بعث الحياة في الجسد، والثانية إثارة الرغبة في الموت في أعماق القلوب

فالفتاة عندما أحبت انتعشت نفسها وخفت أمراضها وشعرت بالقوة والحيوية تسريان في شرايينها، وإن كان ذلك إلى حين. والفتى أحس أن العبقرية إنما يسعدها الإلهام من الحب، ووجد في حبيبته « قصيدة إلهية رائعة » يستمد منها الإلهام، بل يستمد منها الحياة ...

ولكن الحب قد بلغ بهما منتهى ما تصبو إليه الروح من السعادة ... وهما يخشيان بعد ذلك أن يوقظهما من حلمهما الجميل ما يحيط بهما من واقع أليم ... وهما لذلك يصبوان إلى الموت قبل أن تحيق بهما الكوارث، ولكي يظلا متحدين اتحادا روحيا تاما في الآخرة كما كانا في الدنيا

الطبيعة :

الطبيعة تلعب دوراً خطيرا في مسارح الحب الرومانتيكي، فهي صديقة كل عاشق يبوح لها بعواطفه، ويبثها أشجانه، ويسر إليها بنجواه، ولا يجد الراحة والسلوى إلا بين أحضانها الزاهرة

محمد عبد الحليم محمود

رفائيل

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

إحدى روائع القصص العالمي الواقعي
لشاعر فرنسا الخالد « لامرتين »

قص فيها بأسلوبه الشعري تاريخ فترة من شبابه تدفق فيها حسه بالجمال وفاض بها شعوره بالحب ... وهي كآلام « فرتر » في دقة الترجمة وقوة الأسلوب ... طبعت أربع مرات وثمنها

٢٥ قرشا عدا أجرة البريد